ملامح وسمات عامة في المنهج النقدي
في كتابات الدكتور محمد مصطفى هدارة
في دراستيه مقالات في النقد الأدبي
ودراسات في النقد الأدبي

د. سعد سليمان حمودة

على مدار فترة زمنية تناهز الأربعين عاماً يتواصل العطاء الفكري لأستاذنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة، باحثاً أدبياً جاداً وناقداً ثاقب الرؤية سديد التفكير، لا تعوزه أصالة المنهج ولا نزاهة القصد.

يشهد على هذا ما له من أبحاث متواترة في ميدان الدرس الأدبي والنقدي، الذي أخلص له نفسه مجرداً من كل هوى، فقد تخرج في قسم اللغة العربية في الخمسينيات، إلى أن أجيز للتدريس بالقسم المذكور (كلية الآداب بجامعة الإسكندرية) أوائل الستينيات، إلى أن حاز درجة ((الأستاذ)) أوائل السبعينيات.

وخلال هذه الرحلة الطويلة، لم يتوان عن العطاء الفكري الخصب، سواءً في هذه الجامعة العريقة، أو فيما انتدب له أستاذاً معاراً للتدريس بالجامعات العربية المختلفة، ما بين السودان والسعودية وبيروت والكويت وغيرها، إلى ما له من نشاط محمود في الأندية الثقافية والعلمية المختلفة، وما له من إسهامات حميدة في المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية في مصر وسائر البلاد العربية، مِمَّا كان له أثره الملموس في توجيه حركة النقد العربي وجهة سليمة، والوقوف سيفاً بتاراً في

وجه دعاة التغريب، ومن على شاكلتهم من أدعياء الثقافة، وما نشر من بحوث ومقالات، تكشف زيف دعاواهم، وتبين في جلاء عن ضحالة أفكارهم.

وفي هذا المقال الموجز يحاول الباحث -إجلالاً ووفاءً وتقديراً- أن يلقي الضوء على أهم السمات المميزة للفكر النقدي عند أستاذه، على النحو الذي تعرب عنه مقالاته وأبحاثه المنشورة طي دراستيه: ((مقالات في النقد الأدبي))[١] و((دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق))[٢] في الحدود التي تسمح بها طبيعة المقال والمقام.

ونستطيع أن نجمل هذه السمات في:

أولاً: الموضوعية.

ثانياً: الأصالة.

ثالثاً: المعاصرة.

رابعاً: الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

خامساً: الشمول والتنوع.

أولاً: الموضوعية

الموضوعية في البحث العلمي، على اختلاف موضوعاته وقضاياه، صفة لازمة لنجاحه، كونه يبحث عن الحقيقة المجردة، فيصف ظواهرها وصفاً يتسم بالتجرد، والبعد عن الهوى، أو يصفها كما هي، وذلك أمرٌ لا يكون إلا بعد

(١) نشرت ((مقالات في النقد الأدبي)) لأول مرة سنة ١٩٦٥م دار القلم - ثم أعادت نشره دار العلوم - الرياض سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م بعد أن أضيف إليه بعض الموضوعات.

(٢) نشره مركز الشهابي للتوزيع والنشر بالإسكندرية - بدون تاريخ.

طول ممارسة للقراءة والدرس والتحصيل، إلى ما يجب أن يكون عليه الباحث من التزام أصول المنهج العلمي السديد؛ نزاهة وموضوعية ليتسنى له إصدار الأحكام الصائبة السليمة على الظاهرة المراد وصفها، أو نقلها، ومن ثمَّ الحكم عليها.

وإذا كان النقد القديم - صدد تقديمه الأعمال الإبداعية للأدباء من الكتّاب والشعراء، ما يفتأ يشير إلى ضرورة التلازم الواجب بين عنصري النظرة الموهوبة، والدُّرْبة المكسوبة، فمما لا شكَّ فيه أن المتصدي لدراسة الأدب -إبداعاً ونقداً-، أحوجُ ما يكون إلى التزام حدود هذه النصيحة، إذ يجب أن يجمع بين العلم والذوق، وهما أمران لازمان متلازمان لنجاح كل نقد أصيل.

فماذا في الفكر النقدي لأستاذنا التزاماً بهذه الأصول المعلومة؟

المطالع للبحوث والمقالات موضوع الدراستين يستطيع أن يلمَّ -إجمالاً- بهذه الملاحظات:

١- وضوح الرؤية النقدية في الكتابين جميعاً - على اختلاف وتعدُّد الموضوعات والمباحث النقدية التي عالجها، وصدور الباحث فيها عن روحٍ واحد، هو الإخلاص للعلم، والبعد والتجرد من الهوى والغرض.

فلا شكَّ أن الكتابين يمثلان وجهة نظر واحدة، يصدر صاحبها عن إيمان عميق بصدق القضية التي ينافح من أجلها، على تعدد المستويات النقدية التي أدلى فيها دلوه، سواء كانت نقداً لبعض مظاهر القصور التي تعتور حياتنا الثقافية[1]، أو الوقوف سيفاً بتاراً صارماً في وجه الدعوات الهدامة

(١) انظر مقال: حياتنا الأدبية الثقافية إلى أين تتجه؟:
مقالات في النقد الأدبي: ص١٣، ٢٠ وما جاء فيه من نقد لبعض مظاهر النشاط الثقافي للجماعات العربية وخاصة المترجمات.

التي تستهدف فكر وتراث هذه الأمة التليد[١]، أم كانت غير هذه وتلك، كتلك المقالات التي تتناول بعض مظاهر النشاط الفكري والإبداعي للعاملين في ساحة الدراسات الأدبية[٢]. إذ يصدر الناقد عن روح عربي أصيل لا تعوزه في كل الأحوال المذكورة روح العالم ولا رهافة حسّ الأديب.

٢- وتبدو هذه الموضوعية على صورة جلية في المنهج العلمي الذي ألزم به نفسه، صدد تناوله بالنقد الموضوعي بعض الأعمال الإبداعية والفكرية لبعض الباحثين في ميدان الدرس الأدبي، وكانت تربطه بكثيرٍ منهم روابط الود والصداقة والزمالة، بيد أنه آثر روح العلم ونزاهة القصد على ما قد يجرُّه إليه مثل هذا النقد من عواقب، وهو أمر تعرب عنه أصدق الإعراب مقالات القسمين الثاني والثالث من ((مقالات في النقد الأدبي))، حيث تناول بالنقد في القسم الثاني منه بعض الفنون الأدبية، وفي القسم الثالث تناول بالنقد المنصف البنّاء بعض الدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية.

وفي هذه وتلك نجد الالتزام الواضح بأصول المنهج العلمي: موضوعية، ونزاهة قصد، وتجرداً عن كلّ هوى وغرض، إذ كان لا يحفزه إلاّ نيَّته

---

(١) انظر مجموع المقالات في نقد الحداثة في: دراسات في النقد الأدبي: ص١٠٤، ٧ ومقال الرد على مرجليوث في مقاله عن أصول الشعر العربي من الكتاب نفسه ص١٧٧-٢١٩. وجميعها تصدر عن رؤية نقدية واحدة دفاعاً عن التراث العربي الأصيل، وتفنيداً لحجج وادعاءات المغرضين من المستشرقين، ومن لفَّ لفهم من الباحثين والأدباء العرب.

(٢) انظر مجموع مقالات القسمين الثاني والثالث من: مقالات في النقد الأدبي: فالقسم الثاني منه في نقد بعض الفنون الأدبية: ص٧٥ إلى ص١٨٥، أما الثالث ففي نقد بعض الدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية: ص١٨٩ إلى ص٢٦٩.

الصادقة المخلصة في إقامة صروح نقد يتسم بنبل القصد، ونزاهة الغرض، وتلك روح الناقد الأمين، تجمع بين موضوعية العلم، ونبل المقصد، وسمو الغاية إلى ما يتميز به من رصانة حس وذوق في تعامله مع نصوص الأدب.

٣- وهي ملاحظة متممة للملاحظتين السالفتين ولا غنى لإحداهما أو كلتيهما عنها، وهي أن هذه الروح النقدية التي تتميز بالأصالة والموضوعية، ما كان لها أن تكون على هذا النحو، لولا هذا الاطلاع الموفور من الناقد في شتى مناحي المعرفة المتصلة بميدان درسه، على النحو الذي تعرب وتبين عنه في جلاء ووضوح جميع مقالات وموضوعات الدارسين، حيث غدا ينافح عن قضاياه لا تعوزه حُجَّة للدِّفاع إتقاناً لوسائله، وتمرساً جيداً وصبوراً بشتى فنونه، بما زود به نفسه من زاد ثقافي موفور، ما هيأ له التبريز في ميدانه.

ثانياً: الأصالة

آثرت هذا العنوان على عنوان آخر رُبَّما كان معبراً -إلى حد ما- عن طبيعة الموضوع، وهو ((التراث)) أو ((القضايا التراثية في النقد))، لأن التراث ربما أوحى إيماءً ما إلى الزمن بنوع من الانفصام بين قضايا التراث وقضايا العصر ومشاكله، ولذلك آثرت العنوان المذكور، كونه يمثل زاداً فكرياً يسري في دماء هذه الأمة ويقوم على التعايش الحي المستمر المتلازم بين التراث العتيق الموروث، وموضوعات العصر وقضاياه ومشاكله.

ولا شكَّ أن الأدب -إبداعاً- ميدان خصب، يحاولُ أعداء الأمة العربية والإسلامية النفوذ منه إلى أغراضهم الخبيثة بما ينشرون من دعاوى وأفكار، يروجُ

لها مفتوناً بها بعض الباحثين والأدباء العرب، ممن يستهويهم بريق حضارة الغرب، ويتغافلون، أو يدركون ويغفلون خبث النوايا، وسوء القصد الذي يضمره لحضارة العرب وميراثهم الثقافي التليد بعض المستشرقين.

ومن هنا كان الدفاع عن كُلِّ ما يتصل بهذا التراث العربي الأصيل على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة، خطورة وأهمية تلك القضية: الالتزام والأصالة مع المعايشة والمعاصرة.

ومعنى هذا أن يلتزم الباحث المعاصر الأطر الثقافية المرعية التي تقوم على الإتقان الجيد، والفهم الواعي بقضايا التراث، والإتقان الجيد لمناهج الدرس الحديث في شتى مناحيه الفكرية المعاصرة، وخاصّة ما كان منه متصلاً بموضوع درسه.

وقد بدت هذه السمة واضحة في المقال الذي أُفرد للردِّ على المستشرق مرجليوث في مقاله عن: أصول الشعر العربي The Origins of Arabic Poetry المنشور في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية[1].

---

(١) نشر المقال بالمجلة المذكورة سنة ١٩٢٥م، وقد فتن بالمقال وما تضمن من آراء بعض الباحثين العرب على رأسهم الدكتور طه حسين في كتابه في ((الشعر الجاهلي)) الذي صدر سنة ١٩٢٦، وقد تصدى للرد عليه بعض الباحثين من أمثال محمد لطفي جمعة، ومصطفى صادق الرافعي وغيرهما، وقد ترجم المقال أخيراً حيث قام بترجمته يحيى الجبوري تحت عنوان: ((أصول الشعر العربي)) أصدرته مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٩م، كما ظهر مقال مرجليوث مترجماً مرة أخرى ضمن كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي بعنوان ((دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي))، ونشرته دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.

ويحاول مرجليوث في مقاله المذكور أن يثبت أن الكثرة الغالبة من نصوص وأشعار الأدب الجاهلي ليست من الجاهلية في شيء وإنَّما هي منحولة بعد ظهور الإسلام[١].

مصدر الخطر في هذه الفكرة يكمن في محاولة نفي أن يكون للعرب أدب ((ما قبل الإسلام)) ومن ثَمَّ الطعن في القرآن وهو نحو من البحث يصادم عقيدة المسلمين، ويحاول في خبث هدم كل ما يكون للعرب من أدبٍ راقٍ، أبت سليقة هذا المستشرق أن تقرَّ به، فضلاً عن أن تتذوقه وتنفعل به، وانساق وراءه نفر من الباحثين العرب كطه حسين في (الشعر الجاهلي) وعبد الرحمن بدوي في (دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي)[٢].

وقد تنكّب مرجليوث جادة البحث، فراح يلتمس أوهى الأسباب ليقيم على أساسها الواهي نظريته المزعومة، فراح يستدل بالقرآن الكريم على وجود شعراء جاهليين، كما راح يجمع من غير فهم بين الشاعر والكاهن والمجنون لا لشيء إلا لكونها وردت في سياق واحد من النسق القرآني[٣].

كما أخطأ خطأً فاحشاً في فهم آيات سورة الشعراء، وغير هذه وتلك من أمور تجلّى فيها خطره البين، ونيته الخبيثة التي يضمرها للقرآن وأهله، بما حاول جاهداً أن يصل إليه من الشك في الشعر الجاهلي وإنكار أن يكون للعرب شعراء

---

(١) وهي الفكرة ذاتها التي تبنّاها طه حسين في الشعر الجاهلي انظر: دراسات في النقد الأدبي: ص ١٧٨ وما بعدها.

(٢) دراسات في النقد الأدبي: ١٨، ١٨١.

(٣) المصدر نفسه: ص١٨١.

كشعراء اليونان، وذلك حتى يصل إلى غرضه، وهو أن يكون النبي ﷺ قد اخترع هذا القرآن، أو على أقل الفروض أن يثير الشك في الأدب الجاهلي ـــ شعراً ونثراً ـــ، وهو أصل أصيل اعتمد عليه المفسرون في تفسير القرآن.

ومن هنا انبرى أستاذنا للدفاع عن القرآن ولغته وأدبه، بما ساقه من حجج متواترة نقض بها مزاعم مرجليوث على النحو الذي يبين عنه المقال بما لا يسعف المقام بذكره.

ومن الموضوعات الأخرى التي تتصل اتصالاً وشيجاً بهذا الموضوع، مجموعة المقالات التي تناولت موضوع ((الحداثة))[1].

ونعتقد أن الفكر الحداثي ما هو إلا تطور خبيث لأمثال فكر مرجليوث في مقاله آنف الذكر، بيد أنها تحمل قدراً غير قليل من الخطورة، بما وجدت لها من تربة مهيأة غير صالحة عند نفر من الباحثين والأدباء العرب، وبما تحمل من جراثيم أشد نُكراً، تبتغي الفتك بكل ما هو قيم وأصيل للعرب والمسلمين.

ومكمن الخطورة في هذه الدعوة أنها تحاول هدم القيم الأصيلة في الأدب فكراً وإبداعاً، ثُمَّ إنها دعوة تبدو منظمة تنظيماً جيداً مِن قِبل نفر من المستشرقين وتلاميذهم في البلاد العربية، الذين يكنون للتراث كل مظاهر الحقد والبغض الدفين.

تبدأ مقالات الحداثة بمقال عن الحداثة والتراث، كشف الناقد فيه اللثام عمَّا يعتور مفهوم هذا المصطلح من لبسٍ وغموض في أذهان كثيرٍ من الباحثين المعاصرين، إذ ارتبط في أذهان بعضهم ببعضِ مظاهر التجديد في الأنماط الأدبية

(١) انظر بالتفصيل القسم الأول من: دراسات في النقد الأدبي: ص٧-١٠٤.

المختلفة في الشعر والمسرح والقصة، بينما هو أوغل من ذلك بكثير إذ يتعدى تأثيره نطاق الدرس الأدبي -إبداعاً وفكراً ونقداً- ليعم جميع مظاهر النشاط الفكري للإنسان العربي المسلم في الشريعة والأدب والعقيدة والسياسة والدين.

كما ميّز في دقة بين مفهوم هذ المصطلح ومصطلح العصرية التي تعني إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة عبر الأجيال، نتيجة وجود تغير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن[١].

بينما تعني الحداثة في بعض تعريفاتها الانفجار المعرفي الذي لم يتوصل الإنسان المعاصر بعد إلى السيطرة عليه[٢]، أو الثورة على كل الأشكال والمواريث المألوفة في الدين واللغة والأدب، أو على حد عبارة أدونيس - تجاوز الواقع أو اللاعقلانية، أي الثورة على قوانين المعرفة العقلية وعلى المنطق وعلى الشريعة[٣].

وتوضيح معنى المصطلح على هذا النحو من الدقة، يشهد لصاحبه بالأصالة في البحث إذ إنه الخطوة الأولى التي يخطوها الباحث لترتيب قضايا موضوعه ترتيباً موضوعياً سليماً، بناء على ما يستقر عليه الباحث من فهم سليم بعد طول درس وتمحيص للمفاهيم المتعددة للمصطلح الواحد، وما قد يعتوره من لبس أو غموض في الأذهان[٤].

ولذلك ارتبطت الحداثة بكثير من الدعوات والمذاهب الهدامة، كالماركسية والعلمانية والليبرالية، وقد بدا ذلك واضحاً في فكر الحداثيين العرب، الذين عرض

---

(١) دراسات في النقد الأدبي: ص٨.

(٢) دراسات في النقد: ص٩.

(٣) المصدر نفسه ص١٣.

(٤) انظر ذلك تفصيلاً في الصفحات من ٩-١٣.

البحث لكثير من أخطارهم وإبداعاتهم الأدبية، التي ضمنوها أصول المذهب وأفكاره، كما يتضح جلياً في أعمال عليّ أحمد سعيد (أدونيس)، وخالدة سعيد، وكمال أبي ديب، وقد حاول هؤلاء الاحتفاء بكلّ خروج على السلطة الشرعية، بوصفه نوعاً من الثورة على تلك السلطة، وتجاوز حدود العقل والمنطق، ولهذا فقد اعتبروا حركات الخوارج والزنج والقرامطة أنماطاً من الثورات (الحداثية) -إن جاز التعبير- كونها تحاول الاحتجاج أو الثورة على السلطة الشرعية، كما احتفوا احتفاء خاصاً ببعض الشعراء الذين عبروا عن ضيقهم بهذه السلطة، كاحتفائهم بأبي نواس لأنه -كما يذكر أدونيس- فصل الشعر عن الأخلاق والدين، رافضاً حلول عصره، معلناً أخلاقاً هي أخلاق الفعل الحر والنظر الحر، أخلاق الخطيئة[١].

وعلى هذه الوتيرة تصدر إبداعاتهم كالذي نجد في قصيدة لغة الخطيئة لأدونيس الذي يريد أن يعبر بخطيئته فوق الله والشيطان[٢].

وإذا تجاوزنا هذا الجانب من الفكر الحداثي، نجد الحداثيين في تعاملهم مع اللغة يصدرون عن هذه النظرة الرافضة لكل ما هو أصيل متوارث، فهم يرون أن اللغة شبح السلطة التي يكرهون وجودها، أو يروها لغة مكدسة محشوة بالسلطة، قوة ضخمة من قوى الفكر المتخلف التراكمي السلطوي[٣].

ولذلك يحاولون تدمير قواعدها، وذلك عن طريق تدمير بنية الجملة الدالة بما هي نسق ((واضح))، وتحويل الجملة إلى ما يسمونه سلسلةً من الإمكانات

(١) دراسات في النقد الأدبي: ص١٦.

(٢) المصدر السابق: ص١٥.

(٣) المصدر السابق: ص٢٣.

والتداخلات، أو بعبارة أخرى تدمير اللغة بقواعدها المتوارثة، والتبشير بما يسمونه لغة المستقبل، وهي لغة تعتمد اللغز والإشارة: لغة باطنية سرية لا قوام لها[١].

أي أنها تعمد إلى تدمير العلاقة التقليدية الإشارية بين الكلمات والأشياء، فلا تعود الكلمة إشارة إلى الشيء أو تسمية له بل تصبح استثارة لأنواع مختلفة من السياق[٢].

ويعرض الناقد لنماذج مختارة من أشعار الحداثيين، تعبر عن رؤيتهم للغة على النحو الذي ذكرنا، كما يبدو في قصائد أدونيس، وعفيفي مطر، وعلي الخليل، مما يطول المقام بذكره[٣].

كما يعرض لإنتاجهم في القصة، ويشير إلى انتشار أفكارهم بين مجموعة لا بأس بها من الأدباء، وخاصّة في بلاد الشام، حتى انتشر الوباء بين بعض أدباء فلسطين الذين ينبغي أن يكون أدبهم بوجه عامّ شديد التواصل بالشعب العربي وضوح رؤية، وصدق لهجة وتعبير، ومحافظة على التراث بمنأى عن أسر هذه الضبابية في اللغة والتعبير، التي يتسم بها أدب وفكر الحداثيين، وبعيداً عن هذه المفاهيم الهدامة التي لا تبغي الخير للعرب والمسلمين، ولولا خشية الإطالة لأطنب المقال في الاستشهاد لما يقول بما تقتضي ضرورة الاستشهاد، ولكن المقام والمقال لا يعينان على مثل ذلك، فبحسبنا الإشارة واللمحة الدالة.

---

(١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٢) المصدر السابق: ص٢٤.

(٣) المصدر السابق: الصفحات من ٢٣-٢٩.

وحسبنا أن نذكر أن أستاذنا قد ألمَّ بأطراف القضية من جميع جوانبها، وأبان في جلاء ووضوح عن مفهوم الحداثة، وفكر الحداثيين، وأورد نماذج متعددة من الأدبين الغربي والعربي صدد دفاعه عن هذا التراث التليد في صفحات طوال من دراسته: ((دراسات في النقد الأدبي)) بما يشهد له بنبل الغاية، ونزاهة الغرض، والبعد عن الهوى، بالإضافة إلى المعلومات الوافرة التي قدمها للقارئ العربي في هذا المضمار، وهو أمر لا يكاد الباحث يعثر على مثيل له عند غيره من باحثي الأدب ونقاده، إخلاصاً للفكرة، وخدمة للموضوع، بهذا الاطلاع الواسع الموفور في مصادره، التي عنيت به في الغرب، وفي بلادنا العربية على وجه السواء.

ثالثاً: المعاصرة

تبدو هذه السمة ملحوظة في ثلاثة أنماط من المقالات النقدية موضوع الدراستين:

أولها: مجموعة المقالات التي تناولت قضايا فكرية ووجدانية حيوية، كتلك التي أشرنا إليها آنفاً، وهي قضايا يتعدى نطاق تأثيرها ميدان الدراسة الأدبية، ليشمل مجموعة المظاهر الفكرية لهذه الأمة، ذات التراث العريق الأصيل في العقيدة والدين والأدب والسياسة والفكر، وتجعل من الأدب -إبداعاً وفكراً- محور ارتكاز تتسلل منه في خبث، للنيل من معتقد هذه الأمة، وتراثها التليد، أو تحاول -على أضعف الإيمان- زعزعة إيمان عامة المؤمنين بالأصول العامة لشريعتهم وأدبهم ودينهم.

ولا شكَّ أن الحديث الذي يتناول الحداثة مصطلحاً فكرياً، له مراميه التي لا تخفى على المدققين المنصفين من أبناء هذه الأمة، ويتناول

فكرها وإبداعاتها بالنقد الجاد، الذي يكشف زيف دعاواها، وضحالة فكر الداعين إليها، المفتونين بها، وكذلك الرد على بذور هذه الدعوة التي بدأت تستشري في القرن الماضي، بسبب ضعف المسلمين، وقوة شوكة المستعمرين، كما أن المعالجة الموضوعية تعتبر معالجة عصرية واعية لموضوعات تجمع بين القديم والجديد، وبين التليد الأصيل الموروث، وبين الجديد الذي لا حياة له بغير أن يستمد وجوده وحياته من هذا القديم الأصيل.

وثانيها: تلك المجموعة من المقالات التي تناولت نقد بعض الأبحاث والدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية لمجموعة من الباحثين في ميدان الدراسة الأدبية[١].

وهذا النوع من النقد يسهم إسهاماً إيجابياً في توجيه دفّة النقد المعاصر، وهو جانب من النقد قلّما يعنَى به النقاد المعاصرون. ومثال هذا النوع من النقد على سبيل التمثيل لا الحصر، تلك الدراسة التي تناولت بالنقد تحقيق كتاب ((الممتع في صنعة الشعر)) لعبد الكريم النهشلي القيرواني، حيث وقع المحقق في أخطاء منهجية واضحة، أبان عنها المقال، وأظهرُها إعراضُ المحقق عن ذكر النشرات السابقة لهذا الاختيار، واصطناعه عنواناً له من عنده[٢].

---

(١) انظر القسم الثالث من: مقالات في النقد الأدبي: ص١٨٩، ص٣١٨.

(٢) مقالات في النقد: ٢٦٩، ٢٧٠.

كما وضح من نقد التحقيق النقص الشديد في ترجمة صاحب الاختيار إلى جانب الأخطاء اللغوية في نص التحقيق[١].

وقد حصر النقد الأخطاء التي وردت في نص التحقيق في:

- التحريف والتصحيف نتيجة سوء القراءة والفهم، والجهل بالمصادر اللغوية والتاريخية والأدبية وكتب التراجم، ويضرب المقال الأمثلة على ذلك[٢].

- تدخل المحقق في عبارة النص إمَّا بالتغيير أو إسقاط بعض الألفاظ أو زيادته لها حيث لا موجب للإنقاص أو الزيادة[٣].

- ولا يقتصر الأمر على ذلك إذ يتناول التحريف الشعر، كما يبين ذلك من الأمثلة التي استشهد بها النقد[٤].

- إغفال المحقق تخريج الأشعار من حيث الترجمة لقائليها، وتحقيق نسبة الأبيات الشعرية لمن تنسب إليه، وغير ذلك من أمور يتطلبها التحقيق، إذ إن الشعر مادة هذه الدراسة فكان يَنبغي أن يولى من العناية شرحاً وضبطاً وتحقيقاً ما ينبغي أن يكون له، ولا شكَّ أن إغفال مثل هذه الأمور مما يجب أن يؤخذ به صاحب التحقيق[٥].

---

(١) المصدر السابق: ص٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧١-٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٨٦.

(٤) انظر ذلك تفصيلاً في الصفحات من ٢٨٦ إلى ٣٠١ من: مقالات في النقد الأدبي.

(٥) مقالات في النقد: ص٣٠١.

وفائدة مثل هذا النقد أنه يسهم في توجيه دفّة الدراسة الأدبية وجهة سليمة، إذ المصادر في الدراسة الأدبية أو الدراسات اللغوية بوجه عام هي عماد تلك الدراسة، وعليه فعلى من يتصدى لتحقيق بعض تلك المصادر، أن يبذل جهداً في ضبط النص وشرحه والتعليق عليه، حتى يتحقق وجه الإفادة منه على الوجه المنشود.

وثالثها: مجموعة المقالات التي أفردت لنقد فنون الأدب من شعر وقصة ومسرحية، وكلُّها أنماط أدبية لأدباء معاصرين، وبذلك يشارك في تقويم حركة الإبداع الأدبي المعاصر، ونأخذ مثالاً لهذا النمط من النقد المقال المفرد لنقد ديوان الدكتور عبد القادر القط. وعنوان الديوان: ((ذكريات شباب والشعر الجديد)) قدَّم له الشاعر بمقدمة تحدث فيها عن ((شعره بصورة توضيحية مبسطة، ودافع عن بعض ما توهم أن يكون موضع اهتمام من النقاد، فتحدث عن الشعر المعاصر بوجه عام حديثاً مفصّلاً، تناول الشكل والمضمون وبعض المذاهب الأدبية..))[1].

وموضوع الديوان يدور حول محور واحد هو قصة حب الشاعر، التي تصور تجربة شعرية حيَّة عاشها الشاعر، وانفعلت بها ولها نفسه، فسجلها شعراً يصور معاناته إبَّان هذه التجربة صدر شبابه، وهي تجربةٌ باءت بالإخفاق، لأنه ضرب حول نفسه سياجاً من المثل والأوهام، فأعرضت عنه صاحبته، إذ لم تجد عنده إلا الجفاف، ووجدت الري في صحبة غيره.

---

(١) مقالات في النقد الأدبي: ص٧٦.

حين يقبل الناقد على نقد عمل شعري، عليه أن يتخلى عن كلِّ المؤثرات (الخارجية) التي يمكن أن تلقي بظلالها على نفسه، ومن ثم على الحكم الذي يقوِّم به هذا العمل، وهذا ما قام به الناقد هنا، إذ أعرض عن تلك المقدمة التي قدم بها الشاعر لديوانه، أو أقبل عليها حتى إذا فرغ من هذه المهمة أقبل على دراسة الديوان والمقدمة، حيث تبيّن له بعد قراءة الديوان ومقدمته أنها، أي: المقدمة ((جزء لا يتجزأ منه))[١].

وهنا يأخذ الناقد في معالجة بعض ما ورد بالمقدمة من قضايا نقدية، ومنها قضية القديم والجديد في الشعر، بما هو كائن حي يسري عليه ما يسري على الأحياء، كما يتناول موقف النقاد والأدباء من هذه القضية فهم فريقان: فريق ((محافظ)) شديد المحافظة، يتشبث بالماضي بكلِّ ما أوتي من قوة، وآخر يبهره التطور والجديد فيندفع في تطوره محاولاً التحلل من كُلِّ ما يربطه بقديمه أو تراثه[٢].

ويتغافل الفريقان عن حقيقة أن القديم والجديد عنصران هامان من عناصر الحياة، إذ مفهومُ التجديد يعني حدوث شيء من حيث الأساس، ولكنه يتضمَّن في الوقت ذاته ((بقايا شيء قديم)) وعلى هذا فهو يختلف عن التغيير المطلق، ويعني تغيير العناصر المكوِّنة مع بقاء الهيئة الأصلية واستمرار الأساس القديم[٣].

---

(١) مقالات في النقد: ص٧٦.

(٢) المصدر السابق: ص٧٧.

(٣) مقالات في النقد:٧٧.

ومكمن البراعة في مثل هذا النحو من النقد، هو حرص الناقد على تحديد الأطر والأسس التي يُقيمُ عليها بناءه النقدي، كما يبين هنا في الحرص على تحديد معاني المصطلحات النقدية بصورة واضحة جلية، وهو أمر لاحظ الباحث حرص الناقد عليه في سائر مقالات الدراستين، وهو من الأمور التي تحمد له.

ولعل أظهر الملاحظات التي أبداها الناقد صدد تقويمه هذه التجربة الشعرية، أن صاحبها عاش تجربة حبِّه عيشة مثالية جامدة، ويبدو أنه ربط نفسه بهذا الحبِّ العذري، متناسياً أو متغافلاً أن محبوبته كائنٌ بشري يعتوره ما يعتور سائر البشر من أحوال الكمال والنقصان، فكان أن هجرته وتركته، إذ لم تجد عنده غير الجفاف، ووجدت الري عن سواه كما يقرُّ هو بذلك في قوله:

قد أَلِفْتِ الشِّفاه بالرَّاح ريّا
وأَلِفْتِ الأكُفَّ بالإثْمِ سكرى
فاجتويت الجفافَ من شفتيا
وسئمتِ المنى بكفيَ حيرى[1]

ويحاول الدكتور القط تعليل سبب اتجاهه إلى هذا اللون من الشعر الرومانسي بسبب من الظروف الاجتماعية المعلومة، التي عاشها وأبناء جيله أثناء الحرب العالمية الثانية، بيد أنَّ الناقد لا يوافقه على ذلك، ويرى أن ذلك راجع إلى تأثره بجماعة أبوللو التي أثرت تأثيراً وجدانياً بالغ الأثر في شباب ذلك العهد[2].

---

(١) المصدر السابق ص: ٨٠.

(٢) نفسه: ص٨١.

كما يرصد المقال اقتران تجربة الشاعر بالحيرة والإحساس بالحرمان والقلق، إلى غير ذلك من الظواهر التي رصدها من خلال تتبعٍ دقيق وأمين لقصائد الديوان.

رابعاً: الجمع بين الأصالة والمعاصرة

قد يبدو هذا العنوان جمعاً تلفيقياً للسِمَتَيْنِ السالفتين، وقد يبدو الحديث هنا نوعاً من تكرار الحديث هنالك، وما إلى ذلك قصد البحث، إذْ بانَ بما سلف من القول أن ثمة موضوعات قد اجتمع لها قضايا التراث جنباً إلى جنب مع قضايا العصر ومشكلاته، كما برز واضحاً في موضوع الحداثة، وأن ثمة موضوعات أخرى انصرف النقد فيها انصرافاً كلياً لمعالجة موضوعات عصرية، (كالذي ذكرنا آنفاً عن نقد بعض الفنون الأدبية)، ونضيف هنا أن بعضاً ثالثاً أفرد لمعالجة بعض موضوعات النقد القديم، كالذي يبدو واضحاً في مقال ((المحاكاة في الشعر الجاهلي))[١] وفي مقال: ((الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام))[٢].

وعلى عادته في التحديد الدقيق لمعنى المصطلح النقدي، يتناول النقد مصطلح الأدب الإسلامي بالشرح والتفسير، فهو في أول عهده، للتمييز بينه وبين أدب الجاهلية، وإن شئت الدقة: الأدب الذي أنتجته فترة صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية، تمييزاً له عن الأدب الذي أنتجته الجاهلية[٣].

---

(١) انظر: دراسات في النقد الأدبي: ص٢٢٠-٢٤٣.

(٢) انظر: دراسات في النقد: ص١٥١-١٧٤.

(٣) المصدر السابق: ص١٥٢.

بيد أن الإطار الزمني وحده لا يقدِّم تفسيراً كافياً لمفهوم المصطلح، إذ إن كُلَّ أدب عربي كتب بعد الإسلام حتى يومنا هذا، يمكن أن يندرج تحت مفهوم المصطلح، وليس هذا فحسب، بل يمكن القول بأنَّ كلَّ أدب كتبه المسلمون بغير اللغة العربية يُعدُّ أدباً إسلامياً، وعلى هذا يمكن القول بأن الأدب الإسلامي هو: ((الأدب الذي يكتبه أيُّ أديبٍ مسلمٍ أيّاً كانت لغته))[١].

بيد أن توسيع مفهوم المصطلح على هذا النحو، لا يحدد في دقة مفهوم هذا الأدب، ويوسع من دائرته، بحيثُ يغدو مفهومه فضفاضاً واسعاً، وهو أمر يجافي المنهج العلمي الذي ينشد الدقة والموضوعية في قضاياه وموضوعاته ومسائله، وعلى هذا فإنَّ الأدب الموصوف بأنه إسلامي ينبغي أن يعبر عن هذا المضمون، فليس الإطار الزمنيُّ وحده كافياً في تحديد مفهوم المصطلح، إذ يتسع الباب معه لدخول ألوان من الأدب لا تتفق في غاياتها ومراميها والغايات والمرامي والأخلاق الإسلامية الحميدة، وعلى هذا فالأدب الإسلامي هو ((أدب له خصائصه الفكرية والفنية، التي تعبر عن شخصيتنا الإسلامية وتراثنا، وقاعدته الفكرية التي ينطلق منها هي الإسلام))[٢].

أو هو في عبارة أكثر تحديداً ووضوحاً: ((التعبير عن النظرية الإسلامية الشاملة للكون والوجود، فلا يتصادم معها، أو يخالفها في أية جزئية من جزئياتها ودقائقها))[٣].

---

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٢) دراسات في النقد: ص١٥٢.

(٣) المصدر السابق: ص١٦٧.

وهذا التعريف الأخير تتوصل إليه الدراسة بعد عرض لموقف الإسلام من الشعر، وارتباطه بقضية الصدق والكذب في الشعر، وموقف النقد منها، وآراء النقاد الغربيين والعرب فيها، كما يأخذ البحث في عرض نصوص من الشعر العربي، اجتمع لها جمال الفن وصدق التعبير، بحيث عبر الشاعر العربي المسلم في صدق عن معتقده، في شعر جمع بين جمال الفن وصدق الالتزام[١].

أمَّا عن موضوع ((المحاكاة في الشعر الجاهلي)) فقد عرف النقد اليوناني القديم المحاكاة مصطلحاً نقدياً يعتمد فكرة الاحتذاء، بمعنى أن يحتذي الشاعر النماذج الشعرية الجديرة بالاحتذاء أو المحاكاة، وقد أصبحت هذه الفكرة أساساً من الأسس النقدية في عصر النهضة[٢].

وإذا كان ذلك كذلك، فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة في شعر الجاهلية، بل كيف يمكن تفسير الظاهرة في شعر الشاعر الواحد، دون أن يكون هناك ثمة ما يشعر بالتكرار الذي يبعث على السأم.

ينتهي البحث إلى أن إحساس الشعراء الجاهليين صادق في تكرار المعاني الكلية، وأنهم حين يتعاورون المعنى الواحد في أوصاف محددة، يديرونه في صياغة جديدة أو متقاربة[٣].

ويتناول الناقد بالشرح والتفسير والتعليل أمثلةً متعددة من الأشعار الجاهلية، ليدعم بها رأيه، فالنقد في غاية أمره ما هو إلا عملية تفسير دقيق للمثال الأدبي،

---

(١) انظر ذلك تفصيلاً في الصفحات من ١٦٨، ١٧٣ في دراسات النقد الأدبي.

(٢) دراسات في النقد: ٢٢٠-٢٢١.

(٣) المصدر السابق: ٢٢٢-٢٢٣.

واستيفاء الأحكام النقدية من خلاله، لتأييد حكم ما فيه أو نقضه، وهو ما فعله الناقد هنا، حيث أورد مجموعة وافرة من الأشعار في أغراض متعددة تشابهت فيها الأوصاف، واختلفت الصياغة والتعبير اختلافاً ما، على النحو الذي أبانت عنه الدراسة.

خامساً: التنوع والشمول

بَانَ بما عرضنا له من سمات الدرس النقدي، أن هذا الدرس تناول أنماطاً شتى من ميادين الدراستين الأدبية والنقدية، بل تعدى هذا الإطار الأكاديمي المحدود، ليتناول قضايا فكرية عامة تتصل بالفكر الإسلامي في الشريعة والسياسة والدين، وهي أمورٌ تهم جمهرة القراء العرب والمسلمين، ويتعدى نطاقها دائرة المتخصصين في الدراسات الأدبية.

كما رأيناه يفرد جانباً منه لمعالجة بعض مظاهر النقص والقصور التي تعتور حياتنا الثقافية والفكرية، وبذلك يسهم في تقديم وتوجيه دَفّة الحركة الثقافية ليس على مستوى مصر فحسب، بل على مستوى البلاد العربية قاطبة[1].

كما لاحظنا أن قسماً كبيراً من المقالات النقدية أفرد لنقد الفنون الأدبية (أو الإبداع الفكري) في الشعر والقصة أو المسرح، وآخر لنقد بعض الأبحاث والدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية، بحيث غطّى النقد جميع مظاهر النشاط الفكري والإبداعي الذي يجوز للناقد العمل فيه، وبحيث يترك انطباعاً راسخاً في نفس القارئ، أن مجموع هذه المقالات، يعالج كافة الشؤون والقضايا الفكرية

(١) انظر على سبيل المثال: حياتنا الأدبية والثقافية إلى أين تتجه، مقالات في النقد الأدبي: ص١٣-٢٠.

والأدبية التي يستشعر هذا القارئ أهميتها، ومن ثمَّ حاجته إلى مَنْ ينير له الطريق، بما يقدَّم له من آراء سديدة إلى ما يرضي به حاجة نفسه وذوقه الفطري بما قدَّم له من نصوص الأدب شعراً ونثراً، مشفوعة بتحليلاتها الأدبية الراقية، مؤيداً بها رؤاه النقدية الصائبة.

وبعد ذلك فتلك لمحة عامة، أحسب أن ثمة قصوراً شديداً يسمها، بيد أن الباحث لا يملك إلا أن يتقدَّم بها -على ما بها- إجلالاً وتقديراً وعرفاناً ووفاءً لأستاذه، داعياً المولى أن يجعله على الدوام قبس نور وخير وهدى، ينهل من عمله عارفو فضله، والله المستعان وله الحمد في الأولى والآخرة.

obeikandl.com